مجهر شبكة العلاقات ، التـي تستطيع الرواية نسجها وفتحها على افق بلا حدود .

« شرق المتوسط » ، تبقى محاولة لابراز الزمن السيكولوجي ، مبالغة كبرى ، لكن تجد تبريرها لنفسها في كونها صرخة ضد القمع ، والارهاب الذي نعرفه في حياتنا العربية على الجسد الانساني . لكن الصرخـة ، وان كانت مشروعـة من حيث المنطلق ، تحتاج الى اكتشاف ارضيتها الواقعية حتى يتحول الفن الى سلاح ، كما يريد عبد الرحمن منيف على لسان أنيسة في نهاية الرواية : « ولاني أتركها الان تسافر ، ليقرأها كل الناس ، رغم كل ما فيها من اخطاء وصرخات ، لا اعتقد ان رجب يرضى عنها او يريدها .. لكن كما قلت لكم .. انا امرأة خاطئة .. وأريد أن أتبع طريقة رجب ذاتها : أن ادفع الامور الى نهاياتها .. لعل شيئا بعد ذلك يقع » .

— ٥ —

«المجموعة ٧٧٨»، هي تسجيل روائي متواضع، يتخلى عن جميع الادعاءات الثقافية ، ليقدم لنا ، لوحة واقعية ، تسجيلية ، لحياة مجموعة مـن الشباب الفلسطينيين في عكـا ، حيث يتحـول الهاجس الوطني ، الى ممارسة مسلحة ، مليئة بالبطولات والتضحيات ، تكشف عما يختزنه شعبنا من طاقات تستطيع أن تنفجر ، اذا تمكنت مـن الوصول الى حد أدنى من التنظيم . فوزي نمر احمد ، عبد حزبوز، محمد حسين غريفات ، فتح‌الله السقا ، يوسف ابو الخير ، رامز توفيق خليفة . هذه أسماء ستبقى في ذاكرة شعبنا، عنوانا للتضحية والنضال ، وللحس الوطني المسؤول ، الذي يتحول الى فعل سياسي — عسكري .

توفيق فياض ، لا يقدم لنا ، سوى تحقيق يروى على لسان قائد المجموعة ، بلغة بسيطة ، لا تريد شيئا . تريد فقط ان تكون أداة ايصال مباشرة . لغة لا تحمل في داخلها ، أدنى طموحـات اللغة الادبية بالمعنى المتعارف عليه . انها فقط وسيلة لنقرأ من خلالها ما سمعه توفيق فياض في السجن ، تفاصيل وممارسة .

المدهش في هذا التسجيـل الروائي ، هـو التفاصيل اليومية . تحول مجموعة من الشباب الوطنيين الى خلية حقيقية ، تمارس ، تخطـط وتنفذ ، رغم صعوبة الاتصال بالقيادة في الخارج ، ورغم العلاقات التنظيمية شبه البدائية . هذه القدرة هي محصلة للتجارب الشعبية ، مع المحتل ، مع قمعه وحقده وارهابه . ثم حين تسقط المجموعة في أيدي سلطات الاحتلال ، فانهـا تسقط لسبب تنظيمي في خارجها ، في تنظيـم فتح في الضفة الغربية . هذا السقوط من الخارج ، دليل قاطع على قدرة المكر الشعبي ، الذي يتجلى في علاقة فوزي نمر احمد بالمخابرات الاسرائيلية ، وتحايله عليها ، وتضليلها بشتى الاساليب الممكنة . وعند سقوطهم ، يضطر العدو الى الاعتراف بقدراتهـم الخارقة . « ولكنني ما كدت افتح الباب لاخرج الى مخزن الاسلحة حتى كانت عدة هراوات تنزل على رأسي فجأة ، وعشرات الجنود ورجـال الشرطة المدججين بالسلاح ينقضون علي لاجد نفسي بعدها مكبلا بالحديد من رأسي الى قدمي . فنظرت ولدا « الياهو موزر » و« اهرون سلع » ينظران الي بعينين حاقدتين ، ثم دنا مني اهرون سلع نازعا قبعته عن رأسه ليضعها أمامي قائلا : « كنتم رجالا وانني اعترف » .

تجري الرواية في الفعل الماضي . انها استعادة تفصيلية لاحداث جرت فعلا . وتتوقف عند نقطة الاعتقال . هكذا لا يقدم لنا المؤلف سوى قدرة على الوصف التفصيلي الذي يأخذ بأنفاس القارىء . هنا نتساءل ، لماذا بقي التسجيل الروائي عند هذه الحدود « التسجيلية » بالمعنى المباشر والفوري للكلمة . تستطيع الرواية التسجيليـة التلاعب بالزمن ، التقديم والتأخير ، حتى لا نقع فقط على تفاصيل المطاردات ، والعمليات . نستطيع تقطيع المشاهد واضاءتها بالمعلومات او الاستنتاجات او بأحداث تقع في أماكن اخرى . يبدو ان هـذا الاخلاص في التسجيل قد قاد الرواية الى منزلق كونها قماشة لرواية تسجيلية . فهي المادة الاولى التي يجب العمل عليها حتى تقدم صورة متكاملة لواقع النضال في الارض المحتلة ١٩٤٨ .

لكن يبقى لتوفيق فياض ، فضل اضاءة هـذا الجانب النضالي ، الذي لا بد من متابعته ، كي نصل الى رواية تسجيلية شاملة تكون وثيقـة تاريخية لمرحلة نضالية بالغة الاهمية .